من أخبار المسافرين (٢٥)

مُسافرٌ من دوْس

ذلك هو الطفيل بن عمرو الدوسي، في بلاد زهران، وفي أرض دوس نشأ بين أسرة شريفة كريمة.. وأوتي موهبة الشعر، فطار بين القبائل صيته ونبوغه.. وفي مواسم «عُكاظ» حيث يأتي شعراء العرب من كل فَجّ، وحيث يجتمع الناس ويحتشدون، ويتباهَوْن بشعرائهم، كان «الطفيل» يأخذ مكانه في المقدمة..

كما كان يتردد على مكة كثيراً في غير مواسم «عكاظ»..

وذات مرة كان يزورها، وقد شرع الرسول ﷺ يجهر بدعوته.. وخشيت قريش أن يلقاه «الطُّفيل» ويسلم وتسلم قبيلته، ثم يضع موهبته الشعرية في خدمة الإسلام، فتكون الطَّامَّة على قريش وأصنامها..

من أجل ذلك أحاطوا به.. وهيؤوا له من الضيافة كل أسباب الترف والبهجة والنعيم، ثم راحوا يحذرونه لقاء رسول الله ﷺ، ويقولون له: إن له قولاً كالسحر، يُفرّق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعَلَى قومك منه، فلا تكلمه ولا تسمع منه حديثاً!!

ولْنُصْغ للطُّفيل ذاته يروي لنا بقية النبأ، فيقول:

فوالله مازالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذنيَّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسفاً ـ يعني قطناً ـ فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. فقمت منه قريباً، فأبى

الله إلاَّ أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثُكل أمي؛ والله إني لرجل لبيب شاعر وما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يامحمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلاَّ أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرك.

قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم في غير وجهي، أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه.

فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النورفي سوطه كالقنديل المعلق.

قال: وأنا أهبط إليهم من الثنية، حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني قال: ولِمَ يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين

محمد ﷺ، قال: أي بني، فديني دينك، فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تَعَالَ حتى أعَلِّمك ما عُلِّمت. فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

ثم أتتني صاحبتي ـ زوجته ـ فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني، قالت: لِمَ؟ بأبي أنت وأمي، قلت: قد فَرَّق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوتُ دَوْساً إلى الإسلام فأبطؤوا عليَّ، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ بمكة فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دَوْس الزنى والربا، فادع الله عليهم، فقال: اللهم اهد دوساً وأت بهم. ارجع إلى قومك فادْعُهُم وارفق بهم.

فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله بمن أسْلَم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين.

ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ، حتى إذا فتح الله عليه مكة، قلت: يارسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حُمَمَة حتى أحرِقَه.

فخرج إليه فجعل طُفيل يوقد عليه النار ويقول:

يا ذا الكَفَيْن لَستُ من عُبّادكا ميلادُنا أقدمُ من ميلادكا
إني حشوتُ النار في فُؤَداكَا

قال: ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ، فلما ارتدت العربُ خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلّها.

فقُتل شهيداً باليمامة.

رضي الله عنه وأرضاه لقد كان سفره إلى رسول الله ﷺ سفراً مباركاً، عادت بركته وخيره على الطفيل وأهله وعلى قبائل زهران عموماً، بل على الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان. وذلك لأنه تسبب بأمر الله تعالى في أن خرَّج للإسلام رجالاً عظماء وعلماء أجلاَّء كان لهم أعظم النفع وأكرم العطاء على الإسلام وأهله، وعلى رأسهم حافظ حديث رسول الله ﷺ وأعظم راوية في الإسلام أبوهريرة رضي الله عنه وأرضاه ومن أولئك العظماء الذين أخرجتهم زهران عمرو بن الطفيل، والصحابي الجليل جنادة بن أبي أمية العبري الزهراني، وهو قائد أسطول معاوية رضي الله عنهم جميعا، وعبدالله بن مالك بن القشب وهو صحابي جليل من فقهاء الصحابة وممن عرف بالفتوى وهو المعروف بـ «ابن بحينة» ومنهم صهر رسول الله ﷺ وهو الطفيل بن عبدالله الزهراني أخو عائشة بنت أبي بكر لأمها لأن أم رومان زهرانية. ومن أولئك الرجال أبوالربيع الزهراني ـ وهو من رواة الحديث ـ والخليل ابن أحمد، وابن دريد صاحب المقصورة... الخ.

المسافر والحدائق الغناء

الحدائق الغناء، والمروج الخضراء، والأشجار المثمرة، والأزهار العابقة، والورود الباسمة، والرياض الناضرة، والجنان الآسرة، والأنهار السائرة هي من نعم الله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٩]

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

[الأنعام: ١٤١]

كل ذلك يبهج الإنسان ويمتع حياته، ويؤنس قلبه، ويسلب لبَّه، ويروق لناظره، ولكنها بالنسبة للمسلم تثير في نفسه أشياء عظيمة، وتحرك في وجدانه مشاعر جميلة إنها تذكره بجنان الخلد، وبالنعيم المقيم وبما أعده الله لعباده المؤمنين فيقف أمام جنان الدنيا وقفة إعجاب.. وقفة دعاء ورجاء للظفر بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

[الرعد: ٣٥]

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ

وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ [محمد: ١٥]

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

[الإنسان: ١٢ـ٢٢]

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ: ٣١ـ٣٦]

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد» [صحيح الجامع]

وقال ﷺ: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها» [متفق عليه]

وقال ﷺ: «إن في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد» [رواه مسلم]

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

ثم قرأ رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟! قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم»** [متفق عليه]

والمسلم إذا وقف أمام هذا النعيم الدنيوي الزائل، وهذا الجمال الخلَّاب الذاهب تذكر أن هنالك أمَماً كثيرة سبقته فما أغنى عنها هذا النعيم شيئاً وتركته وراءها وذهبت إما إلى نعيمٍ أعظم منه وأدوم، وإما إلى شقاء وتعاسة والعياذ بالله.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٩]

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾

[الشعراء: ١٤٦ـ١٥٠]

فاعمل أخي المسافر للنعيم المقيم وللفوز العظيم وعلى قدر المشقة في السفر يكون الفوزُ والظفر.